والسماء، ثم ينطبق دفعةً واحدةً، حتى لا يمتد فيه طولٌ ولا عرضٌ ولا مكانٌ للتحول والانحراف، بطل المكان فلا مكان ولا أمل في المكان، ووجب البقاء حيث أنت في ذلك الضيق والظلام فلا انتقال ولا رجاء في الانتقال.

وكان صاحبنا كالمشدود بين حبلين يجذبه كلاهما جذبًا عنيفًا بمقدارٍ واحدٍ وقوةٍ واحدةٍ، فلا إلى اليمين، ولا إلى اليسار، ولا إلى البراءة، ولا إلى الاتهام ... بل يتساوى جانب البراءة وجانب الاتهام فلا تنهض الحجة هنا حتى تنهض الحجة هناك، ولا تبطل التهمة في هذا الجانب، حتى تبطل التبرئة من ذلك الجانب، وهكذا إلى غير نهاية وإلى غير راحة ولا استقرار.

وضاعف هذه الحالة ذكاؤها من ناحيةٍ، وطبيعة ذهنه وتفكيره من ناحيةٍ أخرى؛ فهي من الذكاء بحيث لا تقدم على عملٍ واحدٍ أو حركةٍ واحدةٍ لا يختلف فيها وجهان، ولا تقبل التضليل والنكران، وهو في تفكيره وطبيعة ذهنه يخلق الاحتمالات الكثيرة، فلا يجوز عنده احتمال راجح إلا جاز عنده في اللحظة نفسها احتمال راجح في قوته ووزنه وجوازه، ولا يدفع هذا أو ذاك إلا بدافعٍ حاسمٍ لا تردد فيه.

ألمٌ لا نظير له في آلام النفوس والعقول، وحيرةٌ لا تضارعها حيرة في الإحساس والتخمين، وأقرب ما كان يُشبِّه به هذه الحيرة حالة الأب المستريب الذي يشك أفجع الشك في وليدٍ منسوبٍ إليه: هل هو ابنه أو هو ابن غيره؟ ومَن هو ذلك الطفل الصغير الذي يتقاضاه حقوق البنوة على الآباء؟ هل هو رمز الحب والعطف والصدق والوفاء، أو هو رمز الخداع والخيانة والاستغفال والاحتقار؟ هل هو مخدوع في عطفه عليه، أو هو مخدوع في نفوره منه؟ وكيف يفصل في هذين الخداعين؟ وكيف يطيق الصبر على واحدٍ منهما، وكلاهما لا يُطَاق.

بذلك كان يُشبِّه حيرته وهو يحاول الاستمتاع بعاطفته التي هو مستغرق فيها، ويحاول في اللحظة بعينها أن يبترها وينساها ولا يعود إليها، ثم لا يدري في أي المحاولتين هو مصيب، ولا بد أن يدري، وهيهات لا سبيل إلى الدراية بحال!

وإذا كان بعض الشكوك في العشق من وساوس الأوهام، فممَّا لا نزاع فيه أن العاشقَ أصدق الناس في شكوكه حينما يبنيها على أسبابٍ صحيحةٍ وحقائق ملموسة؛ لأنه يعرف صاحبته معرفةً لا يخفى معها عارض من عوارض التغير، ولا لمحة من لمحات العين، ولا همسة من همسات الضمير: يعرف نظراتها ويعرف كلماتها، ويعرف ما تقوله عن سجيَّةٍ وما تقوله بتكلُّفٍ واصطناع، ويعرف أن بعض الخشونة أدلُّ على الحب والإخلاص من